كتاب مفتوح الى الدكتور بشار الاسد

إسمح لي بأن أتوجه اليك ودون سابق معرفة، بهذا المقال الصريح في هذا الظرف الدقيق والمصيري الذي تجتازه المنطقة والذي يستوجب منا الصراحة والمصارحة.

لقد قمتَ بزيارات عديدة للبنان، والتقيتَ الكثير من السياسيين الذين ربما نقلوا اليك ما يسعدك أن تسمعه وليس دائماً ما يجب أن يُنقل اليك عن آراء بعض اللبنانيين حول سياسة سوريا في لبنان.

والكثير من هؤلاء السياسيين يرمَبون سوريا أكثر مما يرغبونها. أما نحن فنعتبر أن حالات الخوف لا يمكن أن تساعد في كشف الحقيقة وتطوير العلاقة للتوصل الى ما نريد ونرغب.

يجب أن تعرف أن كثيرين من اللبنانيين لا يرتاحون الى النمج السوري في لبنان ولا الى "الوجود" العسكري السوري في لبنان. وهذا لا يعني – كما يحلو لمن يحلو لهم – أنهم خونة أو عملاء لإسرائيل، بل يعني تعلقاً (طبيعياً) بالسيادة والإستقلال، كما يعني إنزعاجاً من طريقة التعامل السوري مع لبنان واشمئزازاً من هذا التعاطي ورفضاً له.

أنت إنسان يؤمن بالعلم، فما عليك إلا أن تقوم بعملية حسابية بسيطة وصادقة للسياسة السورية في لبنان، عملية على طريقة الربح والخسارة، وتدرس واقع هذه السياسة وحال اللبنانيين "الحقيقية" تجاهها.

وليتك يا دكتور بشار تطرح على نفسك السؤال الآتي: ماذا تكون ردة فعل اللبنانيين بعد الإنسحاب السوري من لبنان؟ وكيف تكون العلاقة يومذاك بين سوريا ولبنان؟ وهل يبقى من حلفاء حقيقيين لسوريا في لبنان؟ هل حصدت سوريا أصدقاء أو أعداء في لبنان نتيجة وجودها عندنا منذ نحو الربع قرن؟

أقول لك بكل صراحة أن الكثير من اللبنانيين يعتبر أن الأداء السوري في لبنان كان يتعارض كلياً مع مفهوم السيادة والكرامة والإستقلال.

الكثير من أبناء جيلنا – جيلك – جيل الحرب، لم يعرف من الوجود السوري الا "الخلاف" العسكري تارةً والسياسي طوراً، لم يعرف إلا ما رآه وعايشه وسمعه من الطبقة السياسية التي ساهمت سوريا، آنذاك، في إيصالها الى الحكم والتي شوّهت السياسة السورية أكثر مما خدمتها.

أنت تعرف أن ثمة دماً بين بعض اللبنانيين والجيش السوري في لبنان، وتعرف ان جيلنا ورث الحرب ولم يكن سببها، واننا لسنا هواة حروب أبدية، وأنه ليس هنالك من حروب أبدية أو عداءات أبدية.

وأنت تعرف أن اللبناني متمسك تمسك البقاء بحريته وكرامته واستقلاله وسيادته وهو بالطبع يثور عندما يشعر بأن "الأداء السوري" (لنسمّه هكذا) يشكل تهديداً للحرية والكرامة والإستقلال والسيادة... وعلى هذا الأساس حارب وقُتل وخُطف ونُفي أو نفى نفسه.

نتوجه اليك بصفتك من الجيل الجديد، جيل الشباب المؤمن بالمستقبل والذي قد يتسلم مسؤولية بناء مستقبل سوريا، نتوجه اليك لنقول لك أنه من الضروري أن يطمئن جيلنا اللبناني الى استقلال وطنه والى اعتراف سوريا بهذا الاستقلال وبسيادة الأرض والمؤسسات وبالحريات العامة المقدسة التي تميّز بها لبنان وانجبل بها أرضاً وروحاً ودفع غالياً ثمن دفاعه عنها طوال وجوده.

يجب أن نطمئن الى أن التعاطي مع لبنان لن يكون بذهنية الغالب والمغلوب ولا بذهنية التَبَعية أو الدولة – المحافظة بين المحافظات السورية... يجب أن نطمئن الى أن سوريا قررت أن تنتقل من ذهنية التعامل مع طبقة من السياسيين استسلمت للارتهان الى طبقة من السياسيين الأحرار الذين يمثلون حقاً شعبهم وتاريخه... نريد أن تقتنع سوريا بأن المطلوب هو التعامل بذهنية الحلفاء لا العملاء، وأن هذا التعامل هو أساس سياستها المقبلة.

وما جعلنا نندفع لمصارحتك هو وجود الرئيس إميل لحود في سدة المسؤولية الأولى وما يبعثه ذلك من اطمئنان الى إمكان انتقال نوعي مرجو بين سوريا ولبنان، بالإضافة الى تسلمك انت الملف اللبناني وما شعرناه من تغيير في الاداء على الساحة اللبنانية منذ ذلك التسلم. تغيير جعلنا ننتقل من موقع الخصومة الى موقع الترقب الايجابي الذي قد يكون الخطوة الاولى على طريق التغيير الذي نرجو.

الناس يا دكتور بشّار يسألون عن مستقبل لبنان وعن جدوى وجود الجيش السوري في لبنان، ويسألون إذا كان ثمن السلام في المنطقة هو وضع يد سوريا نهائياً على لبنان!

الناس خائفون على المستقبل وخائفون على هوية لبنان ومصيره، ويعتقدون أن سوريا لم تعترف ولن تعترف ولا تريد أن تعترف بلبنان دولة سيدة حرة مستقلة.

الناس يسألون هل كانت سوريا ستقبل أن يتعاطى لبنان معها كما هي تعاطت معه، لو شاءت الأقدار وانقلبت الأدوار؟

هل كانت سوريا ستقبل أن يتدخل لبنان في الشاردة والواردة في السياسة الداخلية السورية كما تعاطت سوريا في لبنان؟

الناس يرفضون هذا النمط من التعاطي، يرفضون مبدأ البوسطة في الانتخابات واللوائح المركبة في الشام و"البركة" التي تأتي من فوق لتُفرض على الشعب.

الناس يرفضون التوقيفات والموقوفين في سجون دمشق.

اللبنانيون يرفضون الوصاية.

نعم، هذا النمج يزعج اللبنانيين، مع أنه بدأ يتقلص في عهد الرئيس لحود ومع تسلمك الملف اللبناني.

عليك يا دكتور بشار أن تتفهم هذه الأمور وأن تدرك الأسباب التي جعلت الناس أو بعض الناس يشعر هكذا تجاه سوريا.

نخاطبك بكل صراحة، بصراحة الشباب، لأن هذا العهد أراد أن يضع نهجه تحت شعاري الصراحة والشفافية.

سوريا محتاجة الى لبنان مثلما لبنان محتاج الى سوريا إذا أردنا أن نواجه مستقبل ما بعد السلام وأن لا ندفع ثمن هذا السلام.

من هنا نقول أن لبنان معافى وقوياً يقوّي الموقف السوري.

ولذلك مطلوب أن يكون لبنان شريكاً كاملاً لا تابعاً كي نكون معاً في مواجهة المرحلة المقبلة وإسرائيل.

إن ثمة مخاوف لبنانية من السياسة السورية لم يبددها مرور الزمن بل، للأسف، زادها تعميقاً. هنالك من يعتبر أن سوريا هي في موقع الخصم والعدو وعليك أن تواجه هذا الواقع لتتمكن من حل هذه المشكلة التي يجب حلها، حتى لو وصفها بعض المتفائلين بأنها مجرد عقدة نفسية.

عليك أن تساعد حلفاءك – لا عملاءك – في لبنان وفي الحكم بالذات وأعني هنا مباشرة الرئيس لحود ليتمكنوا من إقناع اللبنانيين بالسياسة السورية الجديدة في لبنان وتجاه لبنان فنفتح معاً صفحة جديدة على مستوى العلاقات– علاقات لا نفهمهاإلاّ على مستوى الدولتين.

ولا بد أن تعرف أن السلم الأهلي في لبنان ما زال هشاً لأن اللبنانيين يعتبرون أن هنالك مشكلة كبيرة على مستوى تمثيلهم في السلطة التشريعية، مما يعني أن هنالك مشكلة على مستوى الحوار اللبناني – اللبناني سببها التدخل السوري المباشر في السياسة اللبنانية.

من هنا نعود لنقول لك أن الشعب اللبناني يعلق أهمية كبرى على الإنتخابات المقبلة ومدى تدخل سوريا فيها. ويعلّق أهمية كبرى على مستوى "الوجود السوري" وعدم تنفيذ اتفاق الطائف حول إعادة الإنتشار ويسأل ويتساءل عن برنامج زمني لهذا التنفيذ وينتظر أجوبة معتبراً أن بداية التنفيذ تكون بمثابة المؤشر والهدية المعطاة لحكم إميل لحود. ومطالبة هؤلاء الناس بإعادة الإنتشار لا تجعلهم خونة أو أعداء، بل هم مواطنون مقهورون ينتظرون أجوبة تبدد مخاوف مبررة.

كما أننا ننتظر من سوريا أن تزكّي وجود لبنان في المفاوضات عند معاودتها مع اسرائيل. يجب أن نكون شركاء فعليين حول الطاولة، ننسق مع سوريا حول الاستراتيجيا الموحدة، فأي غياب للبنان أو تغييب له سيجعل اللبنانيين يعتبرون أن سوريا لا تريد لبنان قوياً وسيداً ومستقلاً وأن ثمن دخولها في التسوية هو إبقاء لبنان كدولة تابعة لها وتحت وصايتها وهيمنتها... وهذا الأمر يا دكتور لا يقبله ولن يقبله أحد، وخصوصاً بعد ٢٠ سنة من الحروب والتضحيات، بالاضافة الى ان غياب لبنان عن المفاوضات سيضعف سوريا ويقوي بكل بساطة العدو الاسرائيلي.

شعب لبنان شعب كريم بطل، لا علاقة له بهذه الطبقة السياسية التي اعتادت سوريا أن تتعاطى معها خلال العهود الماضية. وشعب لبنان براء من هذه الطبقة السياسية التي عاصرتها سوريا و"ساعدتها" خلال العهود الماضية والتي ورطت دمشق أكثر مما خدمتها.

لذلك يا دكتور بشار نتوجه اليك بكل صراحة وقلب مفتوح لننقل بعض مخاوف الأكثرية الصامتة التي لو وجد من يتكلم باسمها دائماً لما وصلنا الى ما وصلنا اليه اليوم على مستوى العلاقة السورية – اللبنانية.

لقد حان الوقت لأن نتصارح، مهما كلفتنا هذه الصراحة، وأن نُسمّي الأشياء بأسمائها، فثمرة الصراحة قد تكون علاقات متينة وشفّافة وتعاوناً حقيقياً، بينما عاقبة الكذب والتكاذب ستكون المزيد من الحقد والخوف والإنتقام والدمار والخراب للبنان ولسوريا!

ألا تعتبر أن العلاقة المبنية على الصراحة تعني الإحترام المتبادل وهي التي تستمر، عكس العلاقات القائمة على التكاذب والنفاق والزحف والرياء؟

ألا تظن أننا دفعنا غالياً جداً وما فيه الكفاية ثمن سياسة الجيل القديم؟

قد يتساءل بعضهم عن مغزى كلامنا اليوم، وقد يحمل التساؤل تشكيكاً في توقيت هذا الكلام وفي صراحته...

أما جوابنا لك فهو: لا تخف الذين يصارحونك، لا تخف شفافيتهم، فمهما اختلفت معهم تظل نتيجة الخلاف اتفاقاً حقيقياً يصمد... أما أبطال الكذب والتكاذب والخداع والتمسّح على الأعتاب فسياستهم هي: يوم معك ويوم عليك... حسب الأوضاع وحسب العرض والطلب!

يومها لا يعود لديهم أي فرق بين الوطنية والخيانة، وبين طعن العدوّ وطعن الحليف والصديق والشقيق... فضلاً عن طعن الذات!

جبران تويني